

**سيمائية المكان وتجلياته الشعرية في  
الشعر الجاهلي  
شعر عبدالله بن الزبيرى مثالا**

**م.دوسام جعفر مهدي**

**جامعة ديالى.كلية التربية الأساسية**

**Ali1999wisam@gmail.com**

الحمد لله حمدا يوافي نعمه والصلاة والسلام على كمن لا نبي بعده وعلى أله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أما بعد فالوجود الإنساني منبني على عنصرين أساسيين مهمين لا يقوم وجود دونهما هما عنصرا المكان والزمان، فهما يشكلان كينونة الوجود وكنهه وحقيقته ولا يقوم الوجود إلا بتوافر هذين العنصرين اللذين يشكلان النطاق الأوسع والأعمق لكل المفاهيم الأخرى التي تتبثق وتتجلى عنهما ، وفي هدي هذه المقاربة يسعى البحث الذي نروم الخوض فيه إلى بيان الجماليات المتشكلة والمتكونة نتيجة حضور المكان في متن شعري جاهلي يتسم في كثير من نصوصه بفاعلية المكان وقوة حضوره ذلك هو نص شعري متكامل لشاعر جاهلي انمازت شخصيته بالتفكير الوجودي البحث الذي لا يؤمن بغير الطبيعة وعنصريها الأساسيين المكان والزمان، وسيرصد البحث جمالية التكوين السوري في تجليات الأمكنة المتنوعة التي بثها الشاعر في متنه الشعري على نحو من التحليل الذي يجلو ماهية ذلك الحضور الشاخص كينونة يجد الشاعر فيها ذاته ونفسه وتاريخه الذي نساها أو يحاول تناسيه، أو يحال من خلاله بث مواجده ومواجهه أو يستحضر به مجده أو تالد زمنه الغابر. وجاءت خطة هذا البحث منتظمة على المباحث الآتية: وسم المبحث الأول بـ (المكان بوصفه فضاء شعريا مقارنة في المفاهيم والأنساق) أما المبحث الثاني فجاء موسوما بـ (سيمائية المكان مقارنة في المنجز الشعري عبدالله بن الزبيرى مثلا) ، ولعل من نافلة القول إن المتن الشعري موضع الدراسة هو متن جاهلي فكريا وخصائص، وفيه ما فيه من المضامين المكانية المتنوعة والمتغايرة التي يستحضر الشاعر من خلالها المكونات العاطفية والوجدانية والانفعالات الفكرية والأفكار التي يحملها التي تعبر عن صراعه مع ذاته من جهة، وصراعه مع محيطه ومجمعه من جهة أخرى مما يؤدي به إلى إظهار تلك الأمكنة بوصفها رمزا لماض، أو رمزا لواقعة ، أو تعبيرا عن اسقاط المشاعر والانفعالات على تلك الأمكنة التي يستدعيها استدعاءً واعيا مقصودا. ثم ذيلت البحث بخاتمة عرضت فيها أهم ما نتج عن هذه المقاربة النقدية التي عالجت موضوعة المكان بوصفها كينونة شعرية، وثيمة إنسانية معبرة عن وجود كائن أو مفترض يسوقه الشاعر لأجل تحقيق ذاته الشعرية المتجلية في تلك الأمكنة مما يجعل المكان ذا محمولات دلالية فاعلة تنهض بشعرية النص، وبنيتها الفنية المرتجاة التي من خلالها يعبر الشاعر إلى عوالم يستكشفها استكشافا واعيا بمجس الشعر، ومبضع التصوير في بنية الفضاء المكاني.

وألحقت البحث بثبت لأهم المصادر التي رفدت البحث بها ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين أولا وآخر.

## المبحث الأول المكان بوصفه فضاء شعريا مقارنة في المفاهيم والأنساق

تعترف معجمات العربية بمادة ( م ك ن ) على نحو فاعل فتعرفه بأنه الموضع والجمع أمكنة ، كقذال وأقذلة، قال ثعلب يبطل أن يكون مكانا فعلا لأن العرب تقول: كن مكانك وقم مكانك، واقعد مقعدك، فقد دل هذا على أن مصدر من كان موضع منه، ومكّن له في الشيء جعل له سلطان عليه (١). وفي مدونة معجمية أخرى نلفي تعريفا لغويا آخر ينم عن ماهية المكان مكّنهُ الله من الشيء وأمكّنهُ منه، بمعنى: واشتمكّن الرجل من الشيء وتمكّن منه، بمعنى: وفلان لا يُمكّنهُ النهوض، أي لا يقدر عليه. وقولهم: ما أمكّنهُ عند الأمير، شادًا. والمكّن: بيض الضب. والمكّنَةُ بكسر الكاف: واحدة المكن والمكّنات. وفي الحديث: "أقروا الطير على مكّناتها" ومكّناتها بالضم. قال أبو زياد الكلابي وغيره من الأعراب: إنا لا نعرف للطير مكّنات وإنما هي وكّنات. فأما المكّنات فإمّا هي للضباب. ويقال: الناس على مكّناتهم، أي على استقامتهم. وأمكّنَت الضبّة: جمعت بيضها في بطنها، فهي مكوّن. وأمكّنَت الضبّة فهي مُمكّن، وكذلك الجرادة. والمكّنات بالفتح والتسكين: نبت. ومعنى قول النحويين في الاسم: إنه مُمكّن، أي إنه معرب، كعَمَرَ وإبراهيم. فإذا انصرف مع ذلك فهو المُمكّن الأمكّن، كزيد وعمرو. وغير المُمكّن هو المبني، كقولك: كيف وأين<sup>(٢)</sup> ومن خلال ما تقدم نلفي أن المعجمات عالجت بعض المعاني المتعلقة بالمكان وما يشتق منه على نحو لا يوحى بوجود صلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي إلا من خلال لمحات وومضات تتم عن تلك العلاقة . أما المكان بوصفه مصطلحا أدبيا إذ يعرفه لوتمان بأنه (( مجموعة من الأشياء المتجانسة من الظواهر او الحالات أو الوظائف أو الأشكال المتغيرة تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة العادية مثل " الاتصال " " المسافة " إلى غير ذلك ))<sup>(٣)</sup> كما يعرفه بلاشير رائد ما كتب عن المكان بالقول : إنه أحد الأسس والدعائم في إنشاء العمل الأدبي فالأدب الذي يكتسب العالمية هو ذلك الأدب الذي يستطيع أن يتبناه الإنسان ويجد فيه خصوصيته ومثل هذا الأدب يشق الطريق إلى العالمية ولكنه يفعل ذلك عبر ملامح قومية بارزة وقوة إحداهما المكانية فتأريخ المكان تأريخ عريق في الشعر العربي تناقلته الأجيال عبر العصور وأعدت صياغته على نحو من استلهام التراث المتجدد في روح المجتمع فقد أصبح الشعر الذي يتعلق بالمكان فكرا للمجتمع يجري في وجدان الأمة جريانا على الألسنة<sup>(٤)</sup> . ويعرفه كوندر اتينكو بأنه العلاقة الفردية التي بواسطتها يجري الإنسان تقويما للأشياء المحيطة به كأن يسبغ على بعض الأمكنة صفة القداسة<sup>(٥)</sup>، وتعرفه إحدى الباحثات بأنه (( ما

يعني للإنسان أشياء عدة، والمكان علاقة قوية ، لأنه الأرض والوطن والمأوى والانتماء ومسرح الأحداث ))<sup>(١)</sup> وبعد هذه التعريفات التي تظهر مديات التفاعل المكاني في النص الشعري، وبيان ماهيته من حيث اللغة والاصطلاح نلفي أن من المهم ذكره أن الشاعر الجاهلي وجد نفسه خاضعا لأمكنة لم يستطع منها فكاكها، وقد انفعّل الشاعر الجاهلي مع الأرض وما فيها من نبات وحيوان وغيرها وتمثلها في شعره، وكان للمكان سلطانه على الشعر، فالشاعر الجاهلي عانى من المكان، وتلذذ به، وعكس رؤيته الداخلية وشعوره الدفين على ما أمامه من أمكنة<sup>(٢)</sup> ونلفي من يرى أن الصورة الذهنية قد اتسمت للمكان عند الإنسان البدائي بأنه مظاهر محسوسة تشير إلى أماكن أو مواقع لها خصائص عاطفية وكأنها شيء حي فهي مسالمة أو معادية، مألوفة أو غريبة إذ إن الطبيعة بخصائصها ومخاطرها أثرت في ذهنية الإنسان ويات يخشاها ويتزلف لها وأصبحت الدين الوسط بينه وبينها وكان التفاعل مكتملا بين الدين والمكان إذ إن أفكار الدين بدورها أثرت في تطوير المكان وتغييره<sup>(٣)</sup> ويتمظهر اعتقاد الإنسان بالمكان من خلال المعتقدات القديمة إذ هي معتقدات متسعة في أطرها المكانية في المناطق الاستوائية والصحراوية والجهات الباردة فمعتقداتها متشابهة وأبرزها المعتقدات الطبيعية والأرواحية، مما دفعت غلإنسان إلى التدبر في بيئته وإحساسه الفطن بوجود قوة غيبية لها من القدرة ما يقوف قدرته تستطيع التحكم في حدوث الظواهر المختلفة<sup>(٤)</sup> إن المكان في هدي هذه المقاربات يشكل فضاء روحيا وشعريا لا يمكن الفكك منه لأن الوجود الإنساني مرهون بهذين العنصرين الزمان والمكان، ولعل هيمنة المكان على الفكر الإنساني أعمق من هيمنة الزمان أو ربما العكس فالإنسان يستطيع أن يفلت من سطوة المكان بالارتحال والتحول، ولكنه لا يستطيع الخلاص من سلطة الزمان وسطوته لأنه لا يمكن الخلاص بالتحول أو التغيرات المكانية إذ يجري الزمان وسننه حتى على المكان فتندرس أماكن وتظمر، وتزول وتنمحي بفعل تأثير سلطة الزمان الذي هو يعاضد المكان في تكوين الوجود والكون . وعن كون المكان فضاء شعريا يمكن القول : إن الفضاء من حيث ماهيته وتكوينه اللغوي هو من فضا يفوض فوضا فهو فاض والفضاء الخالي الواسع من الأرض، والفضاء ما استوى واتسع من الصحاري<sup>(٥)</sup> فهو يشتمل على المكان وما يحيط به وما اتسع من الارض<sup>(٦)</sup> وفي تاج العروس يعني الاتساع إذ الفضاء الساحة ما اتسع من الأرض، إذ يستدلون على ذلك بقول الراغب الاصفهاني في مفرداته بأنه المكان الواسع<sup>(٧)</sup> وحقيقة الأمر أن المكان هو (( العالم الفسيح الذي تنتظم فيه الكائنات والأشياء والأفعال وبقدر ما يتفاعل الإنسان مع الزمن يتفاعل مع الفضاء ومعنى ذلك أن تاريخ الإنسان هو تأريخ تفاعلاته مع الفضاء أساسيا ))<sup>(٨)</sup> ويتمثل المكان بوصفه فضاء شعريا بالاتجاه إلى حركة الأشياء والعلائق والأصوات والأفعال والروائح والألوان المتعلقة به أي كل ما يغلف هذا المكان فهو يأخذ منها ويعطيها<sup>(٩)</sup>، وثمة مقارنة أخرى تتمظر في التعبير عن كون المكان مثيرا لإحساس المواطن، وإحساس آخر بالمحلية حتى لتظنه الكيان أو الهيكل الذي لا يحدث شيء بدونه وكأن لهذا المكان بوصفه فضاء محمولات دلالية تحمل في طياتها شعورا إنسانيا متجسدا فكان فضاء الجذب والحياة، وآخر مبني على الخيال وفضاء مهجور أغرقته سديمات لانهاية لها وفضاء يصور ما يدور في رحم المجتمع وفي وعي الشاعر<sup>(١٠)</sup> وفي مقارنة أخرى نلفي أن المكان بوصفه فضاء شعريا يمثل الحيز الزمكاني الذي تتمظهر فيه الشخصيات متلبسة بالأحداث تبعا لعوامل عدة تتصل بالرؤيا الفلسفية وبنوعية الجنس الأدبي وبحساسية الكاتب<sup>(١١)</sup> .ومن الجدير ذكره أن دلالة الفضاء تتنوع بين كونه فضاء يكرس التلاشي والإندثار ويسعى لأن يكون منغلقا يحمل معاني السلب وبين كونه فضاء للمقاومة والتغلب على مظاهر الجفاف والتيه والموت<sup>(١٢)</sup> وحين مطالعة التراث القديم في بدء الخليقة نلفي تمظها خاصا لحضور المكان بوصفه المقدس أو فضاء اعتقاديا يلوذ الإنسان به احتماء من الشرور التي كانت تحيق وتحيط به، إذ تجلى المكان بوصفه بيتا للالهة والكهنة معا في صورة المعابد إذ كان الكهنة خدما للالهة يؤدون لهم الطقوس والشعائر ويوفرون لهم ولتمثالهم جميع المتطلبات التي كانوا يحتاجون إليها<sup>(١٣)</sup> وقد اعتقد السومريون اعتقادا راسخا في أهمية المكان التي أوصلتها إلى حد القداسة في رؤيتهم التي تجلت في كون الألهة تسكن السماء ولكن إذا رغبت في النزول إلى الارض فتكون إقامتها في بيوت كبيرة " أماكن مخصوصة " أطلقوا عليها تسمية الهيكل، وقامت هذه الهياكل في بابل وآشور في الألف الثاني قبل الميلاد إذ اشتهر منها هيكل " سن " وفي مصر اشتهر هيكل " بعل " في العصر البرونزي<sup>(١٤)</sup> وتحيلنا السيميوطيقا (علم العلامات) في قراءتها للمكان إلى إدراك جديد للمكان، يتجاوز مديات المكان إلى علامات المكان؛ فهو (( ليس فضاء فارغا، ولكنه مليء بالكائنات وبالأشياء، والأشياء جزء لا يتجزأ من المكان، وتضفي عليه أبعادا خاصة من الدلالات ))<sup>(١٥)</sup> ، فالمكان الذي نحيا فيه ليس سلبيا ولا صامتا، ولكنه يحمل دلالة تتخلل جميع الأبعاد والإحداثيات والأركان والظواهر الطبيعية والأشياء، وهي تتمثل خير تمثيل في الفن ، فعندما نذكر أشياء من المكان فهي بمثابة علامات عليه وعلى مكوناته، فلا يحتاج المبدع إلى ذكر تعريف تفصيلي لمدينة شهيرة، وإنما يكفي باسمها، وبعض معالمها في سياق نصه، وتكون هذه المعالم إحالات تعطي أبعادا معرفية وتأويلية ونفسية للقارئ. فنتم دراسة الإشارات المكانية ضمن منظومة (سيميوطيقية) علامتية كاملة، وفي ضوء معطيات

النص الجمالية والرؤيوية، فليست الأطلال في الشعر الجاهلي - الواردة مجرد إحالات معرفية بل إشارات مكانية، إنها رموز على زمن ولي، كان للشاعر علاقات مع شخوص عاش معهم فيها، وكانت الأطلال - كلما مر بها - شاهدة على حقبة زمنية، بكل تداعياتها وأحداثها. وتختلف هذه العلامة من شاعر لآخر، مثلما هي تختلف من مكان إلى آخر، ومن زمن إلى آخر، فتكون علامة مميزة للنص، وتفهم من سياقه، وتعكس نفسية شاعره<sup>(٢١)</sup> ومن نافلة القوم أن الأمكنة في الفكر السومري القديم قد جاءت من اعتقادات راسخة صورت تلك الأمكنة بأنها مكان استراحة الالهة بعد أن انتهت من عناء الخلق فصارت أيضا وسيطا رمزيا يلبي حاجات رمزية روحية للإنسان فغدا مكان مثل المعبد في نظر الإنسان السومري مكانا مقدسا لأنه بات مشبعا بالدلالة أما لأنه يجسد القداسة وأما لأنه يمتلك جزءا من روح المقدس<sup>(٢٢)</sup> وبعد هذا العرض لماهية المكان في الفكر الإنساني القديم نلبي أن الأماكن اثبت والسنون التي يقربها الجاهليون هي بمثابة أوطان مؤقتة لا يكاد الشعراء يغادرونها بمجرد أوطان أخرى توفر لهم شروط الحياة من ماء وكلاً وحببية تبادلها ويبادلها شعورا صادقا وإذا تغيرت هذه المعطيات فلا مجال إلا للبقاء وهو بقاء الوطن المتقل، هذا الوطن الصغير الذي يمثل جزءا من حياة الجاهلي ولكن سرعان ما يستبدله بوطن آخر حين يعز الماء والكلاً، ومن هنا اشعلت الأماكن في الشعر الجاهلي جذوة الشعراء وضلت تشكل مخاضا عسيرا إذ لم توفر له شروط الحياة الهادئة والملائمة فيظهر خوفه وعدم ثقته بها فيمارس عليها طقوسا مختلفة خوفا من فئائه الأبدى كالبكاء الذي يعده مؤشرا دلاليا على طلبه الخصب ومنه سقي المكان حتى تعود إليه الحياة. فكان البيئة المكانية التي يختزن الشاعر فيها كيانه وتفكيره وعاطفته وحتى خياله، قد أجاد الشاعر في وصفها لما فيها من جمال، هذا الجمال الذي تجلى في الماء والنبات والسماء والصخر والحيوانات فجاشت نفسه بكلام يحمل صفاء ونقاء قريحته فحملت تراثه العريق وتقاليد في كل دار و موطن نزل به واستقر فيه فكان أثرها واضحا في الشعر فوصفها الشعراء وتغنوا بجمال الأمكنة التي أثرت في نفوسهم، فكانت آثار الأنفة والارتياح لها بداية في شعرهم كونها جزء من الطبيعة<sup>(٢٣)</sup> وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذه الأمكنة رديفة للأصالة والمكوث فيها عنوان للصبر وعلو الهمة، فالشاعر دائما يقف على تلك الأماكن المتمثلة بالديار فيبكي عليها، ويبدو متمسكا بها، وتمسكا بالقبيلة أيضا، إذ يجد فيها سموه ورفعته، ومن خلال الوقوف على مرابع القبيلة ومنازلها يجد الشاعر ذاته متجلية فيها على نحو يستلبي منه ارادته لجهش بعد ذلك بالبكاء والحنين إليها، ثم يصف ما وقع في تلك الأمكنة من حروب ووقائع<sup>(٢٤)</sup>. كما يجدر اقول: إن المستبصر للشعر الجاهلي يستببط تلك العلاقة التي سادت بين المكان والشاعر والتي هي قصة حب علفت بأذهان الجاهليين، وأضحيت وثيقة تاريخية يذيب بها الشاعر ما علق به من حرقة الزمن الذي افسد طعم هذه الحياة ولذتها، حينئذ يلجأ الشاعر إلى إعادة حكايتها وقصتها ليجلي الهموم والأدران التي تهاوت على فؤاده. ومن سمات الفكر الجاهلي القديم ازاء علاقة الإنسان بالأمكنة أنه كان ينظر إلى كثير منها نظرة تقديس مثل الجبال والحجارة حين وقف الإنسان أمامها ليعتثر مشاعره، وينثر ما كان يحمل من هموم، وأشواق، وحنين<sup>(٢٥)</sup> ومن حري القول: إن كل نص له علاماته المكانية، التي تكون وسيطا بين المبدع والقارئ، وتبدأ هذه العلامة بمعلومة مفصلة أكثر، ثم تتحول في متن النص إلى علامة على هذه المعلومة، وكلما ارتبطت الأحداث بهذه العلامة المكانية، ازدادت إحياءاتها كلما دُكرت في النص، ويتفرع عنها - في ثنايا النص - علامات فرعية، تشكل في مجملها شفرات مكانية، تساهم في إنتاج الدلالة بشكل إضافي، إذا قرئت بعناية. فالشفرات السيميوطيقية ( Codes ) ( توفر إطارا تصوريا، تصبح العلامات فيه مفهومة، أي أنها أدوات تفسيرية تستخدمها الجماعات أو التجمعات التأويلية ))<sup>(٢٦)</sup> وكي يتضح المفهوم أكثر، فإن المبدع - مثلا - يذكر القرية التي تدور أحداث قصته فيها، وقد يشير إلى موقعها، وطبيعة سكانها في متن النص، ثم يبرز أهم علاماتها المكانية؛ وهذا نوع من التمهيد المكاني للأحداث، ثم يكتفي بذكر علامة من القرية (منزل العمدة مثلا)، مع أحداث وشخوص فيه، يغلب عليهم الظلم والجبروت. فيمتزج منزل العمدة في وعي المتلقي بالظلم، فإذا ذكر بعدئذ، يأتي محملا بشخصه وإحياءاته التي تترسخ في وعي القارئ، وتظل معه كلما استدعى هذه الرواية في ذاكرته، أو وردت العلامة في سياق آخر<sup>(٢٧)</sup>. ويذهب غير واحد من النقاد إلى أن (( العمل الأدبي حين يفقد المكانية يفقد خصوصيته، وبالتالي أصالته ))<sup>(٢٨)</sup>، كما نحا ياسين النصير هذا المنحى بقوله: (( إن المكان دون سواه يثير إحساسا ما بالمواطنة وأحاساسا أخر بالزمن والمخيلة حتى لنحسبه الكيان الذي لا يحدث شيء دونه ))<sup>(٢٩)</sup> ويعد النقاد المكان حيزا نفسيا مهما يلقي فيه الشاعر محمولاته النفسية المصرح بها والمكبوتة فيرى الدكتور عز الدين اسماعيل أن (( حقيقة المكان النفسية تقول إن الصفات الموضوعية للمكان ليست إلا وسيلة من وسائل قياسية تسهل التعامل بين الناس في حياتهم اليومية ))<sup>(٣٠)</sup> وقد حدد النقاد مسارات ثلاثة يجب على الأديب أن يحتذيها حين يورد المكان في النص الأدبي هي (( أن يصبح مكان القصة أو القصيدة هوية تاريخية ووطنية وأن يحمل طموحات الأديب الثقافية بأن يجعله أمام امتحان ثقافي مع العصر وأن يتحول لدى الأديب الفعل في المكان فعلا في البحث عن الشخصية المستقبلية المتطلعة على الواقع ))<sup>(٣١)</sup> ومما يجدر ذكره أن



كون المكان تاريخاً، والتاريخ بوصفه ميزانا للغلبة والغلبة بوصها معياراً للمجد والتفوق في كل الميادين التي كانت العرب تؤمن بها في جاهليتها، ورمزية المكان هنا ترتبط بما يرتبط به من أحداث ينقلها التاريخ ليمثل صفحة من صفحات الحياة الاجتماعية التي كان العرب يعيشونها بكل قسوة وغلظة بحيث صارت الجثث لشدة القتال كأنها حجارة تتردى بها الوديان، والانساق التي يشي بتمثلاتها النص هي أنساق اجتماعية، نفسية، تاريخية، وهذه الأنساق هي ما يشكل البناء الشعري للنص كونه بؤرة تفعيل مركزية في النص تستحضر كل ما يتعلق بالمكان من دلالات مختلفة لتخرج بالنتيجة بدلالة مركزية تشد إليها كل الدلالات الأخرى التي تشظت في مسارب النص لتتشكل الثيمة الناقلة لمديات اشتغال الشعور والشعري في فضاء المكان لتحوّله إلى رمز فاعل في تشكيل الوعي الجمعي الذي يستلب الذات تارة وتارة يعزز وجودها مقابل الآخر، إذ المكان هو الذات أو تجليات الذات وما تسبغه عليه من أسننة فينشأ بينهما التحاور، والعتاب، والبث، والشكوى على نحو يتوهج النص به ليضيء عتامت التلقي التي تدور في ضبابية نتيجة عدم البلوغ الأكمل في فلسفة شعرية المكان، وارتباطه عاطفياً بالشاعر/ الذات الشاعرة التي وجدت منه ثيمة ناقلة وفضاء قارا لبوحها الإنساني.

٣. قال أيضاً:

تتكّلوا عن بطن مكة إنّها كانت قديماً لا يُرام حريمها<sup>(٣٧)</sup>

إن مكة المكرمة احتفظت بمكانتها المقدسة فلم تكن وطننا مملوكاً لساكنيها فحسب، فهي مهوى الأفئدة منذ أقدم العصور، وهي مكان موح معجز يشعل قريحة الشعراء، وهي بعد ذلك من الأمكنة التي تلامس قوة الإحساس في النفس البشرية، ففيها يستشعر الإنسان معاني عدة كاللذة والسعادة والأمل، وقد وردت بأسماء عدة في المتن الشعري العربي القديم قبل الإسلام فهي مكة، وبكة، والبيت، والعتيق، والحرام، واللوى وكلها أسماء موحية تحتوي على شحنة قدسية كبيرة تعطي الشعر طلاوة وتثير حوله جوارحاً روحانياً وعبقاً دينياً<sup>(٣٨)</sup> وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم إذ قال تعالى ( هو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم )<sup>(٣٩)</sup> ، ومن خلال ممارسة الطقوس الدينية في مكة متمثلة بالحج فإنه تبرز عميق الإحساس بقيمة المكان وعبقريته، ويظهر الترابط بين الحس الديني والحس المكاني فيكون من يحج البيت العتيق حاضراً بجسده وروحه، حتى أن غير العرب كانوا يحجون إلى مكة كالفرس الذين يعتقدون أن روح إلههم قد حلت فيه<sup>(٤٠)</sup> وهنا تتشكل ثيمة هي مزيج من المقدس والاجتماعي والروحي والنفسي في مكان واحد يشكل مركزاً لالتقاء كثير من المشاعر والأحاسيس التي تمتزج بالخوف والرغبة، وكذلك تشكل مكة هنا ركناً يعتصم الناس به من كل ما يحق بهم من أخطار، وقد جلا الشاعر ذلك من خلال استحضاره حادثة إبرة الحبشي التي قصد بها هدم البيت الحرام فأرسل الله إليه العقاب الفوري المتمثل بالطير الأبايل التي رمت جيشه بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول وهو عين ما نص القرآن الكريم عليه في قوله تعالى ( ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل )<sup>(٤١)</sup> إذ تجلت هنا في ثيمة المكان دلالات مختلفة منها ما هو ديني روحي تمثل بحماية رب البيت للبيت العتيق بالقوة الخارقة التي صبت العذاب على جيش إبرة، ومنها ما هو نفسي يتجلى بما تمثله مكة من وشيحية روحية نفسية رابطة لكثير من العرب الذين لم يكن يربطهم رابط غير مكة ونسبهم، فكانوا يشعرون بالأمن والطمأنينة حين يقصدونها، ويذرون كل ذولهم وأحقادهم وضغائنهم جابنا فترتاح نفوسهم من التعب والجهد النفسي المتراكم في حياتهم وكأنهم يستشعرون بصفاء المكان صفاء نفوسهم، فصار المكان في هدي هذه المقاربة مكاناً نفسياً يستدعي كل المحمولات الوجدانية والعاطفية لكي تفرغ به أفراغاً، وهنا لم تعد مكة محض مكان جغرافي تتحكم به قوانين الجغرافية، بل تعداه إلى ما هو أعمق وأبعد من ذلك، إذ كانوا يمارسون أعلى درجة التضرع والخشوع وهم يطوفون فيها. أما مكة بوصفها مكاناً اجتماعياً فقد كان ملتقى كل العرب ومحفلاً كبيراً يتجمعون فيه يتبادلون العادات والتقاليد الاجتماعية، ويعقدون بينهم الأحلاف والمواثيق والعهود، فكانت محفلاً اجتماعياً زاخراً يبت الوعي الموروث فتحوّل المكان من كونه الجغرافي إلى حيز اجتماعي تتجلى فيها كل مظاهر التآلف والتواد والتراحم بعد أن كانت تلك العلاقات في غيره منصرمة غير راجحة. أما مكة بوصفها مكاناً دينياً فهي ما يؤمم العرب نحوها وجوههم للحج تبركاً بقدسيتها، وتعظيماً لها ولما يعتقدون فيها من حلول روح الرب فيها، بل ربما كانوا بها يوحدون الرب تعالى بطريقة ما ونمط تعبدية ما غير أن الإسلام أنكره لما فيه من الوثنية، فكانوا يفرغون توسلاتهم وتضرعاتهم وهم فيها لكي تحل عليهم وفيهم البركة كما كانوا يعتقدون على الرغم مما كان يشوب حجهم من ممارسات غير صحيحة، وهنا تحوّل المكان من حيزه الجغرافي إلى كونه فضاء شعرياً زاخراً بالمعطيات الوجدانية والعاطفية والسلوكية والروحية، والمحمولات الانفعالية التي تنتشد ضالتها وسعادتها التي ضاعت أو ضيعت في متاهات القهر والجهل والكبت النفسي والاجتماعي والروحي.

٤. قال أيضاً:

هنا تتجلى هيمنة المكان بتحولاته من الايجاب إلى السلب إذ يعرج الشاعر على ما اعتراه من جدل نتيجة نصرهم على المسلمين في معركة أحد، فيستمد المكان محمولاته الدلالية من الحدث الذي فرح له الشاعر بالمقابل شكل المكان جوا نفسيا معتما لدى المسلمين نتيجة النكبة التي اصابتهم، وهنا تشتغل سيميائية المكان من التشكيل الشعري المتشظي من انثيالات التكوين النفسي والتأريخي والاجتماعي الذي لازمه ملازمة وشيجة، فهنا المكان يتشكل فضاء شعريا للروح بنشوة النصر التي حالفت المشركين هذه المرة نتيجة مخالفة أوامر النبي ( صل الله عليه وآله وسلم)، ومن هنا ينطلق الشاعر في التأسيس النفسي والتأريخي والاجتماعي من خلال توظيف المكان وشحنه بشحنات عاطفية حماسية تتسم بالفخر واعلاء الأنا التي لازمت الجحد والتتكر للدين الجديد، وايثار التأثم والتأثيم والركون إلى تشظيات الذات الضائعة التي جعلت من المكان مؤولا لها وملجأ تفرغ فيه مكنوناتها المختزنة من انفعال حماسي تعويضا عما أصابه من انكسارات فادحة مر بها على نحو ما حدث في وقعة بدر التي مني بها المشركون ومنهم ابن الزبيرى قبل اسلامه، والمكان بهذا التوصيف هو مجال تكوين وتشكيل المحمولات الدلالية التي انقل الشاعر حملها والافضاء بها وكل ذلك تأتي له عبر تقانة توظيف المكان توظيفيا تاريخيا رمزيا نفسيا واستثمار امكانات اشتغاله على تخوم الصورة وفي مركزها، فجاءت لفظة " الجر " وهي مكان جغرافي يقع ضمن جغرافية جبل " أحد" لتشكيل المكان النفسي والاجتماعي والعاطفي الذي تتمركز حوله ذات الشاعر المثقلة بنمط من البوحي الشعري وبهواجس الزهو والافتخار لتشعل مكامن المكان بتشظيات الفكرة المهيمنة على المديات والمقتربات الشعرية التي استبأرت في فلك المكان بوصفه فضاء شعريا فاعلا قادرا على تكوين خارطة تجسيد ملحمي لما عاشه الشاعر من حدث يفضي في النهاية إلى اقرار الموجة الصاخبة التي حملته وحملت مكانه لكي يتكون على خاصرته فضاءات التشكيل الشعري .

٥. وقال أيضا:

والمجد المقدم غير بخل

وبالحجر المشرف والمقام<sup>(٤٣)</sup>

يؤثث الشاعر مكانه ليستحيل فضاء شعريا ذا منحى تقديسي افضى به لأن يكون مقسما به فالمراد بالمقام هنا مقام سيدنا ابراهيم ( عليه السلام ) الذي نص القرآن على ذكره بقوله تعالى ( واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى )<sup>(٤٤)</sup> وهنا تتبثق مديات اشتغال المكان لتحول من مكان عادي إلى مكان مقدس تتخذ فيه الصلوات، والتضرعات، والدعوات، وفاعلية المكان هنا بوصفه مقتربا شعريا رابطا بين الروح والطقس من جهة، وبين الذات والآخر من جهة أخرى ، وهنا تتجلى ثيمة المكان المتعقدة في سماء الكون الشعري لتكون فضاء شعريا يسيح به الشاعر ليدل على نمط من المقدسات الدينية التي تهيم على نفسيته وعقليته فهو لا يتوجه بروحه إلا إليها، ولا يقسم أي يحلف إلا بها مما يدل على نسق خاص من التعلق الوجداني العقلي الروحي بتلك الأماكن، وهو من بعد ذلك يمين غليظ لا يحلفه إلا إذا كان واثقا من المحلوف عليه، بل متيقنا، وهنا تتشابك الثيمات والمحمولات النفسية والاجتماعية والفكرية والعقلية والدينية التي يزخر بها المكان بوصفه ثيمة شعرية قابضة عند مديات البوح المستلب.وهنا ينهض المكان بوصفه فضاء شعريا بسيميائية زاخرة المعطيات والدلالات التي يتشكل منها بوعي تام يقصده الشاعر، وكيونونة المكان بوصفه هذا تقضي إلى اشتغال المنجز الشعري والشعرية في النص بما يكفل قدرا كبيرا من التأثير في باحات التلقي الرحبة التي أنجز المكان سعتها الأكبر في مسارب النص، وعليه فالانتكاء على المكان بوصفه باعثا شعريا يشكل من خلاله الشاعر تكوينه الشعري الذي يقصد به قصدا لازما لمهيمنة المكان كونه يلتبس بذات الشاعر وكيونوته التي سعى الشاعر إلى اثباتها جهارا، ومن هنا كان المكان شاخصا ماثلا ليحقق الفكرة التي اراد الشاعر بثها وايجادها ليكون المكان فضاء يستشعر به الشاعر ذاته ووعيه الجمعي الذي تغنى به الشاعر وأشاد.

## الخاتمة

بعد هذه الرحلة في رحاب المكان في مدونة شعرية جاهلية خلص البحث إلى جمهرة من النتائج التي افضا بها مجس النقد وهي :

١. شكل المكان ثيمة شعرية قارة ومهمة في المتن الشعري الجاهلي عامة وشعر عبدالله بن الزبيرى خاصة.
٢. يفضي المكان إلى مكونات التشكيل الشعري، والصورى في المتن الشعري لدى عبدالله بن الزبيرى
٣. ينهض المكان بكونه فضاء شعريا إلى تفرغ المحمولات الدلالية والشحنات العاطفية التي زخر بها النص .
٤. المكان قوة فاعلة في تشكيل البناء الشعري، وتشكيل الذات الشاعرة.
٥. ينهض المكان بتشكيل البناء الفكري والتكوين الاجتماعي والنفسي للنص بوصفه مقتربا للعبور إلى عوالم المتن الشعري.

٦. ينساق المكان الشاعر بوصفه نسقا معرفيا قارا في المدونة الشعرية العربية القديمة مما يستدعي فحص مزيد من النصوص على حدة فحفا نقديا لرصد شعرية المكان وحركيته.

## الهوامش

- (١) ينظر : لسان العرب مادة ( م ك ن ) .
- (٢) ينظر : الصحاح : ١٧٨ / ٢ .
- (٣) ينظر : تحليل النص السردى تقنيات ومفاهيم : ٩٩ .
- (٤) ينظر : جماليات المكان : ٥ .
- (٥) ينظر : أسس علم الجمال الماركسي : ٣٣٢ .
- (٦) قداسة المكان في الشعر الجاهلي : ٢ .
- (٧) ينظر : قداسة المكان في الشعر الجاهلي : ٢ .
- (٨) ينظر : جغرافية المعتقدات والديانات : ٢١ .
- (٩) ينظر : الإنسان والمقدس : ٩ . ١١ .
- (١٠) ينظر : لسان العرب مادة ( ف ض ا ) .
- (١١) ينظر : مختار الصحاح ( ف ض ا ) .
- (١٢) ينظر : تاج العروس ( ف ض ا ) .
- (١٣) شعرية الفضاء " المتخيل والهوية في الرواية العربية : ٣٢ .
- (١٤) ينظر : المصدر نفسه : ٤١ .
- (١٥) ينظر : قداسة المكان في الشعر الجاهلي : ١٢٨ .
- (١٦) ينظر : الفضاء الروائي في الغربة : ٢١ .
- (١٧) ينظر : قداسة المكان في الشعر الجاهلي : ١٢٨ .
- (١٨) ينظر : الدين السومري : ٣٥ .
- (١٩) ينظر : أوهام التأريخ اليهودي : ١٨٤ .
- (٢٠) القارئ والنص ، العلامة والدلالة : ٤٨ .
- (٢١) ينظر : مصطلح المكان المفهوم والسيموطيقا ( مقال ) على موقع مجلة الرأي <https://www.alraimedia.com/article/>
- (٢٢) ينظر : قداسة المكان في الشعر الجاهلي : ١٤ .
- (٢٣) ينظر : جماليات المكان في الشعر العباسي : ٢٠٦ .
- (٢٤) ينظر : البحث الأدبي طبيعته مناهجه أصوله مصادره : ٦٧ .
- (٢٥) ينظر : صدى الأسطورة والآخر في الشعر الجاهلي : ٧٠ .
- (٢٦) ينظر : معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات السيموطيقا : ٣٠ .
- (٢٧) ينظر : مصطلح المكان المفهوم والسيموطيقا ( مقال ) على موقع مجلة الرأي <https://www.alraimedia.com/article/>
- (٢٨) ينظر : جماليات المكان : ٦ .
- (٢٩) إشكالية المكان في النص الأدبي : ٥ .
- (٣٠) التفسير النفسي للأدب : ٦٧ .
- (٣١) إشكالية المكان في النص الأدبي : ١٦ .
- (٣٢) شعرية التأليف بنية النص الفني وأنماط التشكيل التألفي : ٦٥ . ٦٦ .
- (٣٣) ديوانه : ٣٠ .



( ٣٤ ) ينظر: اريج المدينة المنورة في الشعر العربي ( مقال ) على الشبكة العنكبوتية على موقع

[/https://gate.ahram.org.eg/daily/News](https://gate.ahram.org.eg/daily/News)

( ٣٥ ) ديوان حسان بن ثابت :

( ٣٦ ) ديوانه : ٩٣ طبعة عبدالله الجربوع.

( ٣٧ ) ديوانه : ٩٥ طبعة د. عبدالله الجربوع

( ٣٨ ) ينظر: قداسة المكان في الشعر الجاهلي ( رسالة ) : ٧٦.

( ٣٩ ) من سورة ، الآية :

( ٤٠ ) ينظر: وصف البيت الحرام في الأدب العربي: ١٢٧.

( ٤١ ) من سورة الفيل ، الآية : ١.

( ٤٢ ) ديوانه : ٩٥ طبعة د. عبدالله الجربوع

( ٤٣ ) ديوانه : ٩٥ طبعة د. عبدالله الجربوع

( ٤٤ ) من سورة البقرة ، الآية : ١٢٥.